ولئن كانت ترجمة بعض الأسفار الإلهية بدأت في القرن الثالث ، كما أسلفنا القول ، إلا أن الترجمة الرسمية لمعظم الأسفار لم تكتمل إلا في القرن الرابع . وكانت باكورة الأسفار المترجمة إلى القبطية نقلا عن اليونانية هي على الأرجح البشائر والمزامير . واستمر نشاط ترجمة الكتب الكنسية من اليونانية إلى القبطية إلى زمان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م ، الذي أدت أحداثه المريرة إلى انصراف القبط تدريجيا عن التراث المكتوب باليونانية وفقدان كل اهتمام بمواصلة ترجمته إلى القبطية (٢) .

(٢) اطلب نفس المرجع ، الفصل السابع ، الصفحات من ٧٥ إلى ٧٧ .

الفصل السادس

اضمحلال اللغة القبطية في العصر العربي

استمرت مصر تتكلم القبطية منذ عصر الفراعنة حتى وقت دخول العرب إليها في القرن السابع الميلادي . كذلك كانت اللغة اليونانية منتشرة في الإسكندرية وبعض المراكز الثقافية في المدن الكبرى ، والإدارات الحكومية ، إلى جوار القبطية ، خلال حكم البطالمة والرومان .

وبدخول العرب بدأ استخدام اللغة العربية في الظهور والانتشار بين المصريين بصورة تدريجية . وما إن حل القرن الثاني عشر حتى كانت معظم بلاد الوجه البحري وكثير من بلاد الوجه القبلي تتحدث اللغة العربية .

وعندما جاء القرن الثالث عشر وضع علماء القبط مؤلفاتهم اللاهوتية باللغة العربية ، مما يؤكد سعة انتشار اللغة العربية بين القبط في ذلك الوقت . ولكن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب في الحياة اليومية في بعض مناطق الوجه القبلي حتى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . وإذا كانت قد استمرت بعد ذلك فبصورة فردية ، أو كبقايا تراث منعزل في بعض الأماكن النائية . هذا بخلاف محاولات الغيورين على إحياء التحدث بها خصوصا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

العوامل التي أدّت إلى اضمحلال اللغة القبطية

أولا – قرار تعريب الدواوين الذي أصدره والي مصر عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٠٦م ، ومسارعة الكتّاب الأقباط إلى تعلُّم اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم في الدواوين مما ساعد على نشر اللغة العربية ؛ فهي لغة الحاكم ، وهي الوسيلة للوصول إلى المراكز القيادية التي ترفع عنهم بعض الغبن الذي كان ممكناً أن يتفاقم لو أنهم اعتزلوا الخدمة في الدواوين تاركين المجال لغيرهم . كما أن مقدرة القبط على تعلُّم اللغات كانت من العوامل التي ساعدت على سرعة تحقيق ذلك ؛ فأصبحت إجادة أراخنة القبط ، وهم كبار الكتّاب للغة العربية ، مثالاً يحتذى من شباب القبط الطموحين عبر الأجيال . وهكذا أصبحت العربية لغة المسيحية في مصر منذ القرن الثالث عشر .

ثانيا – تزايد عدد الذين اعتنقوا الإسلام من القبط خلال موجات متلاحقة من الضغطات الاقتصادية والاضطهاد الديني ، وتركهم بالتبعية – عند دخولهم إلى الدين الجديد – لغة الآباء والأجداد ، واهتمامهم بدراسة لغة القرآن . كما أن فتح أبواب الترقي أمام من يعتنقون الإسلام ، إلى جانب الرغبة في التخلص من ضريبة الجزية التي تشتد وطأتها باطّراد على من يتمسكون بالدين القديم ويقاومون الانتقال إلى الإسلام ، كانت من العوامل التي ساعدت على سرعة التغيير .

ثالثا – الاضطهادات المتزايدة للمواطنين ، خصوصا في أيام الحاكم بأمر الله (٩٨٥ – ١٠٢١م) الذي أصدر أمراً بمنع استخدام اللغة القبطية ، ليس فقط في الأماكن العامة والدواوين ، وإنما أيضا على النطاق الخاص وفي المنازل ، ومعاقبة كل من يستخدمها بقطع لسانه . وقد استمر كثير من خلفائه في محاربة اللغة القبطية ، مما اضطر الأقباط إلى وضع ستائر

على أحجبة هياكل الكنائس أثناء التقديس باللغة القبطية . ومع ذلك فإن أفراد الطبقة الحاكمة لم يكونوا يتورعون عن مهاجمة الكنائس والفتك بمن فيها بدون شفقة ولا رحمة . ويقال إن من ضمن أهداف وضع الطواحين خارج الكنائس في تلك الأيام هو تشغيلها أثناء العبادة ، لتخفي ضوضاؤها أصوات المصلين بالداخل ، حتي لا تتعرف عليهم القوات الغاشمة في الخارج .

رابعا – اضمحلال المؤسسات الرهبانية التي كانت معقلا هاما للإيمان المسيحي وحصنا للغة القبطية وتراثها . فبعدما كانت الأديرة مزدهرة وعامرة بالرهبان في أوائل الفتح العربي تدهور حالها بتعرُّضها لاضطهادات مريرة ، وفرض السلطات الضرائب على سكانها ، مما أدى إلى هجر الرهبان لأديرتهم وانخفاض عددهم . وعلى سبيل المثال : فرضت السلطات في سنة ٧١٠م على الرهبان القبط – بهدف حصر تسديدهم للضرائب – أن تُكوى أيديهم بالنار . وكل من ضُبط خلواً من هذه العلامة قُطعت يده . وفي سنة ٧٢٢م ضُرب الرهبان حتى الموت وقُطعت رؤوسهم لخلو أيديهم من علامة الكي ، كما خُربت الكنائس وسُلبت محتوياتها .. وفي فترة تالية أُلزم القبط جميعا بأن يحملوا على أيديهم علامة الكي هذه .

خامسا – إدخال اللغة العربية إلى الكنيسة ؛ فقد أدى اتجاه الشعب إلى تعلُّم اللغة العربية والتحدث بها إلى فشلهم في فهم لغتهم القبطية واضطرار الكهنة أيضا إلى تعلُّم العربية لمواصلة عملهم الرعوي والتعليمي للشعب ، فالقانون الثالث من قوانين البابا غبريال بن تريك في القرن الثاني عشر يطالب الأساقفة بتعليم رعيتهم الصلاة الربانية والأمانة المقدسة باللسان الذي يعرفونه ويفهمونه . والمعروف أن هذا البابا هو أول من

صرح بقراءة الأناجيل والرسائل والمواعظ باللغة العربية ، بينما استمرت صلوات القداس تُتلى كلها باللغة القبطية وحدها ، لأن القبط كانوا يعتقدون أن التقديس باللغة العربية غير جائز شرعًا .

واستمر الوضع على هذا الحال إلى أواخر القرن التاسع عشر حين بدأ بعض الكهنة بترجمة أجزاء من القداس إلى العربية بعد تلاوتها أولا باللغة القبطية . أما في القرن العشرين فقد صارت معظم صلوات القداس تُتلى باللغة العربية وحدها ، وانحسر استخدام اللغة القبطية في الصلوات والتسابيح الكنسية بصورة مذهلة تدعو إلى الأسف الشديد ، لأن تعميم استخدام اللغة العربية في الصلوات الكنسية يؤدي إلى ضياع الحافز الذي طالما حفز شباب القبط في سالف الأجيال إلى تعلُّم اللغة القبطية لفهم الصلوات الكنسية وتراث الآباء .

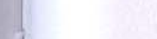

الفصل السابع

بعض أخبار عن اللغة القبطية في العصور الإسلامية

أولاً – القبطية لسان القبط في القرن السابع الميلادي

عندما دخل العرب مصر في سنة ٦٤١م كان كل أهلها يتكلمون القبطية . كما كان المثقفون منهم يجيدون اللغة اليونانية ، خصوصاً أهل الإسكندرية ، وكتبة الدواوين الذين يستخدمون اليونانية في الأعمال الرسمية .

ثانيًا – المحاولات الأولى للتعريب في القرن الثامن الميلادي

١ – يذكر ساويرس بن المقفع في كتابه « **تاريخ البطاركة** » ، تحت سيرة البابا ألكسندروس الثاني البطريرك الثالث والأربعين (٧٠٤ – ٧٢٩م) أن الأصبغ متولي الخراج ابن والي مصر عبد العزيز ، الذي كان مبغضًا للنصارى سفاكًا للدماء ، انضم إليه شماس اسمه بنيامين كان يظهر له أسرار النصارى بسعايته ، وفسر له الإنجيل بالعربية وكذلك كتب الكيمياء .

٢ – أصدر الوالي الذي خلف عبد العزيز ، وهو المدعو عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان ، قرارا في

سنة ٧٠٦م (٨٧ هـ) يقضي بإبطال اللغتين القبطية واليونانية من الدواوين واستخدام العربية بدلا منهما ؛ فعزل رئيس الديوان القبطي وعين مكانه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص (الكندي : الولاة ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ المقريزي : الخطط ، جزء أول ، ص٩٨ ؛ جرجس فيلوثاؤس عوض : اللغة القبطية ص١٣) .

ولكن قرار تعريب الدواوين لم يطبق بحذافيره لأنه كان سابقًا لأوانه ؛ فقد وجدنا وثائق الدولة مكتوبة باليونانية حتى سنة ١٦٤هـ (٧٨٠م) ، كما وجدنا أيضا أوراقًا محررة باليونانية والعربية في آن واحد (جاك تاجر : أقباط ومسلمون ، ص٣٠١) . ومع ذلك فإن قرار التعريب دفع الكتاب الأقباط إلى تعلم اللغة العربية التي أصبح إتقانها شرطا أساسيا لاحتفاظهم بوظائفهم في الدواوين .

٣– ومن جهة أخرى فإنه في تلك المرحلة المبكرة التي كان الشعب فيها لا يفهم العربية اختط بعض العرب لأنفسهم خطة عملية بتعلُّم اللغة القبطية ليوطدوا الصلة المباشرة بينهم وبين الشعب دون احتياج إلى مترجمين . ويقدم لنا الكندي مثال القاضي خير بن نعيم (١٢٠؟ – ١٢٧هـ) الذي « كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم » (الكندي : الولاة ، ص٣٤٩ « على الهامش » نقلا عن ابن وهيب عن الليث ؛ جاك تاجر : أقباط ومسلمون ، ص١٠٩) .

٤– ومن سيرة البابا خائيل الأول البطريرك السادس والأربعين (٧٤٣ – ٧٦٧م) ، في « **تاريخ البطاركة** » لساويرس بن المقفع ، نعرف أن البابا خائيل كان يكتب إلى السلطات باللغة القبطية ، ويرفق بكتابه ترجمة عربية ، كما أنه عندما مثل أمام الخليفة مروان مقبوضًا عليه ليرد على

التهم الموجهة إليه كان الحديث يتم بينهما من خلال ترجمان .

ثالثًا – خشية السلطات من انتشار اللغة العربية في القرن التاسع الميلادي

زاد إقبال الأقباط على تعلم اللغة العربية في القرن التاسع بدرجة أقلقت بعض الحكام ، الذين كانوا يهدفون إلى عزل الأقباط بقرار التعريب ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيضطرونهم إلى التخلي عن وظائفهم إذا أمروهم باستخدام لغة القرآن في الأعمال الرسمية . ولكن الأقباط – خلافا للتوقعات – بادروا إلى تعلُّم العربية للاحتفاظ بوظائفهم .

ولذلك فقد أصدر الخليفة المتوكل في سنة ٨٤٩م (٢٣٥هـ) نشرة يحذر فيها من توظيف النصارى واليهود ، ومن تعليمهم اللغة العربية (المقريزي : الخطط ، الجزء الثاني ، ص٤٩٤ ؛ جاك تاجر : أقباط ومسلمون ، ص١١٠) .

ونقرأ في « **تاريخ البطاركة** » لساويرس بن المقفع تحت سيرة البابا يوساب بطريرك الإسكندرية الثاني والخمسين (٨٣٠ – ٨٤٩م) أنه كان يخاطب الأساقفة المشتكين عليه أمام القاضي باللغة القبطية . وكان قوم من الفقهاء (المسلمين) جلوسًا عند القاضي ، ومنهم من يفهم اللغة القبطية ، وكانوا يميزون قوة كلام البطريرك وما يخاطب به الأساقفة ، فأعادوا على القاضي جميع ما قاله البطريرك .

رابعًا – اللغة العربية تنافس القبطية في القرن العاشر الميلادي

١– يمتاز القرن العاشر بكثرة المخطوطات القبطية المكتوبة خلاله باللهجة الصعيدية ، وبخاصة الرقوق التي اكتشفت في الدير الأبيض وفي غيره من الجهات . ولا شك أننا نلتقي هناك محاولة للنهوض باللغة القبطية وآدابها لإحياء ماضيها المجيد في مواجهة اللغة العربية في عصر

مشوب بالاضطهاد والفساد .

٢- توجد وثيقة هامة عن الرؤيا المنسوبة خطأ إلى الأنبا صموئيل القلموني ترجع إلى القرن العاشر ، وتحوي حثًا مؤثراً على الاهتمام باللغة القبطية ، ونعرف منها أن اللغة العربية بدأت تحل محل القبطية في بعض مناطق الوجه القبلي (يسى عبد المسيح : « اللهجات القبطية .. » ؛ صفحة من تاريخ القبط ، ص٤٩ ؛ مرقس سميكة : فهرس المخطوطات القبطية والعربية بالمتحف القبطي ، المجلد الأول ، المقدمة ، ص LII) .

٣- كما بقيت بعض نصوص قليلة وفريدة في نوعها تثبت محاولة القبط كتابة الكلمات العربية بالحروف القبطية ، مثل النصوص الطبية لشاسيناة ، والنص الكيماوي القديم لشترن ، ويستدل منها على أن القبطية الصعيدية كانت لا تزال لغة التخاطب في الوجه القبلي خلال القرنين التاسع والعاشر . أما النص الذي نشر كازانوفا جزءاً منه ، وأكمل الدكتور جورجي صبحي نشره ، وهو مخطوط من دير أبي مقار لأقوال آباء البرية بالعربية المكتوبة بحروف قبطية ، فيستدل منه على أن القبطية البحيرية كانت في طريقها إلى الاستسلام للغة العربية في منطقة وادي النطرون خلال الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد .

٤- في القرن العاشر أيضا كتب الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين مصنفاته باللغة العربية ، وأشهرها « **تاريخ البطاركة** » ، مستعيناً بآخرين في الترجمة عن المراجع القبطية واليونانية . وقد سبقه في مضمار كتابة التاريخ بالعربية سعيد بن بطريق المدعو أوتيشيوس بطريرك الملكية بالإسكندرية المعاصر له . أي أن رجال الدين في القرن العاشر استخدموا اللغة العربية في كتاباتهم لكي يفهمهم المثقفون من رعاياهم .

خامساً - تحريم التكلم بالقبطية في القرن الحادي عشرالميلادي

١- اضطهد الحاكم بأمر الله (٩٨٥ - ١٠٢١م) النصارى ، وأمر بإبطال استخدام اللغة القبطية فى المنازل والطرق ، ومعاقبة كل من يستخدمها بقطع لسانه (يوسف منقريوس : تاريخ الأمة القبطية ، ص٤٢ ؛ لجنة التاريخ القبطي ، تاريخ الأمة القبطية ، الطبعة الثانية ، ص ٢١٧) .

٢- استمر التضييق على المتحدثين بالقبطية بعد زمان الحاكم بأمر الله كما سبق القول ، فاعتاد القبط على التحدث باللغة العربية ؛ ولو أننا نقرأ في « **تاريخ البطاركة** » قصصًا يتضح منها أن بعض القبط استمروا يستخدمون القبطية على نطاق خاص في بعض الأحيان . ومع ذلك فلا شك أن أقباط الصعيد كانوا أكثر التزاماً بالمحافظة على التحدث باللغة القبطية على المستوى العائلي خصوصا في المناطق النائية .

٣- نقرأ أيضا في تكملة « **تاريخ البطاركة** » لساويرس بن المقفع أن البابا كيرلس الثاني البطريرك السابع والستين (١٠٧٨ - ١٠٩٢م) كتب مع الأساقفة رسائل إلى الحبشة بالقبطية والعربية ، وأنه كان لا يفتر عن قراءة الكتب المقدسة ، خصوصا الأناجيل المقدسة الأربعة بالقبطية .

سادسًا - القراءات الكنسية بالعربية إلى جوار القبطية ، و وجود أقباط لا يعرفون سوى القبطية في القرن الثاني عشر الميلادي

١- قرارات البابا غبريال بن تريك

رغم القهر الذي تعرَّضت له اللغة القبطية في القرن السابق حتى إنه وجدت بين الأقباط جماعات لا تعرف سوى اللغة العربية ، إلا أن الشواهد التاريخية في القرن الثاني عشر تؤكد على وجود أقباط لا يعرفون اللغة العربية ، وهم حتما ينتمون إلى مناطق يسود فيها التحدث باللغة

القبطية . وهناك بطبيعة الحال فريق ثالث يجمع بين معرفة اللسانين القبطي والعربي .

وقد واجه البابا غبريال بن تريك البطريرك السبعون (١١٣١ – ١١٤٦م) هذا الوضع بقرار حكيم ضمنه قانونه الثالث الذي يوصي فيه كل واحد من الأساقفة بأن يعلم الشعب الذي يرعاه الصلاة الربانية والأمانة المقدسة باللسان الذي يعرفونه ويفهمونه .

ويُنسب إلى هذا الأب البطريرك أنه أول من صرح بقراءة الأناجيل والرسائل والمواعظ باللغة العربية في الكنائس بعد تلاوتها أصلا بالقبطية (رسالة مار مينا في عيد النيروز ، توت ١٦٦٤ش ، ص ١٨) . وقد مهد هذا التصريح لظهور الكتب التي تأتي فيها النصوص القبطية متبوعة بترجمتها العربية ، وكذلك أيضا الكتب المكتوبة في نهرين ، أي عمودين للصفحة الواحدة ، الأيسر منهما للنص القبطي ، والأيمن لترجمته العربية ، وذلك ابتداء من القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وكان البابا غبريال نفسه كاتبًا وناسخًا ماهرًا يجيد اللغتين القبطية والعربية .

٢- سكرتير البابا غبريال بن تريك

جاء في مخطوط « **سير البطاركة** » للأنبا يوساب أسقف فوه في القرن الثالث عشر عن « الأنبا بطرس كاتب القلاية أسقف سرسنا » في زمان البابا غبريال بن تريك قوله إن « كاتبه أسقف سرسنا لم يكن يعرف بالعربي بل بالقبطي ، فكان البطريرك يكتب بالعربي وله خط حسن » . ولا شك أن اختيار من لا يكتب بغير اللغة القبطية – ومن المرجح أنه لا يعرف سواها – لوظيفة كاتب القلاية أمر له دلالات كثيرة ، منها أن

الذين يكتب إليهم من رجال الإكليروس أو الشعب لا بد أنهم يتقنون اللغة القبطية ، ومنهم من لا يعرفون سواها . كما أن اختياره هو نفسه أسقفًا لسرسنا وهي بلدة بمركز شبين الكوم يدل على وجود مناطق في الوجه البحري كانت لا تزال تتكلم اللغة القبطية ، وربما لا تعرف سواها . كما أن ممارسته لعمله الرعوي في كرسيه وعمله الكتابي في القلاية البطريركية بالقاهرة يستدل منه على أن اللغة القبطية كانت لا تزال حية على المستوى الشعبي بالقدر الكافي ، حسبما يتضح ذلك أيضًا من المثال التالي .

٣- أبو الفخر بن أزهر

جاء في تكملة « **تاريخ البطاركة** » لساويرس بن المقفع ، تحت سيرة البابا يوحنا الخامس البطريرك الثاني والسبعين (١١٤٧ – ١١٦٧م) أنه : « في أيام هذا البطرك تنصر رجل من اليهود بمصر من كبار قومه خبير عالم من أعيان طائفته يسمى أبو الفخر بن أزهر . وقرأ مذهب النصرانية وتكلم باللغة القبطية في أسرع وقت ، وكان يجادل اليهود باللغة العبرانية ، ويفسر للنصارى باللغة القبطية ، وتمهَّر في مذهب النصرانية حتى صار أعلم من أهله .. » . وهذا الخبر يدل دلالة واضحة على أن النصارى كانوا يتكلمون القبطية في مصر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ويتحاورون بها في أمور الدين ، الأمر الذي دفع ذلك اليهودي المتنصر إلى دراسة اللغة القبطية ، وإجادة التحدث بها في أسرع وقت .

٤- شهادة مستخرجة من الرحالة الكندي في كتابه « الولاة والقضاة »

يكتب الدكتور حسين مؤنس في مقال له عن « **الإسلام والتعريب** » (منشور في كتاب تاريخ الحضارة المصرية ؛ العصر اليوناني والروماني والإسلامي، تأليف نخبة من العلماء) فيقول (في صفحتي ٣٦٩و٣٧٠) :

« ثم دخلت اللغة العربية .. وأخذت تغلب على ألسنة أهل الوادي .. وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر دفعة واحدة .. أما انتشارها نفسه فعملية بطيئة تمت على مر السنين . وإذا نحن قرأنا كتابا مثل « **القضاة والولاة** » للكندي استطعنا أن نتتبع بعض خطوات هذا الانتشار ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار القضاة . ولكننا نفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تَسُدْ ألسنة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجري ؛ فعلي بن سعيد مثلا يشكو من أن الناس في مصر لا يفهمون « لسانه المعرب » تمام الفهم ، بل إن الشربيني صاحب « هز القحوف » يقول إن الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم » .

سابعًا – الأقباط ينشطون في التأليف باللغة العربية ويضعون كتب القواعد والمعاجم بالقبطية والعربية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد

١ – تراجعت اللغة القبطية أمام اللغة العربية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، خصوصا في القاهرة والدلتا حيث بدأ استخدامها في الحياة اليومية ينحسر لتبقى في الصلوات الكنسية التي استمرت تُتلى باللغة القبطية . واقتضت الضرورة وضع ترجمة عربية في مقابل نصوص الصلوات القبطية ليفهم الناس ما يُصلُّون به ؛ فظهرت ابتداءً من القرنين الثالث عشر والرابع عشر كتب العبادة المكتوبة في نهرين ، أى في عمودين لكل صفحة ، الأيسر منهما للنص القبطي ، والأيمن لترجمته العربية .

٢ – أبدى الأقباط المثقفون نشاطًا ملحوظا في التأليف الديني باللغة

العربية ، وأشهرهم أولاد العسال بمؤلفاتهم الكثيرة ، وأبو الخير الرشيد بن الطيب الذي كان قسا وطبيبا ، والشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن مسعود الذي كان قمصا وألف « **تاريخ الكنائس والأديرة** » المنسوب خطأً إلى أبي صالح الأرمني ، وهم من رجال القرن الثالث عشر . والقس أبو البركات بن كبر الذي تنيح سنة ١٣٢٤م ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها الموسوعة الكنسية المعروفة باسم « **مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة** » ، وكتاب « **السلم الكبير** » وهو قاموس قبطي عربي بترتيب موضوعي .

٣ – ومع ذلك فقد استمرت اللغة القبطية لغة الحياة اليومية خلال القرن الثالث عشر ، ليس فقط في بعض بلاد الصعيد ، وإنما في بعض مناطق الوجه البحري أيضا . ولذلك فقد كُتبت سير الشهداء الجدد أو القديسين المعاصرين بالقبطية لتلبية حاجة المتكلمين بها ؛ فالشهيد الجديد يوحنا من الزيتون (بمحافظة بني سويف) الذي استشهد يوم ٤ بشنس ٩٢٥ش ، الموافق ٢٩ أبريل ١٢٠٩م ، كتبت سيرته بالقبطية البحيرية في السنة التالية لاستشهاده . والقديس برسوم العريان الذي تنيح سنة ١٣١٧م كُتبت سيرته بالقبطية الصعيدية لمنفعة أهل الصعيد في القرن الرابع عشر .

٤ – ولدينا من القرن الرابع عشر قصيدة شعرية طويلة مؤلفة بالقبطية الصعيدية في سنة ١٣٢٢م باسم الثلاثية *Triadon* ، لأن الأشطر الثلاثة من كل بيت منها لها نفس القافية ، أما الشطر الرابع فقافيتها لا تتغير في جميع الأبيات . ولم يصلنا سوى ٤٢٨ بيتًا من مجموع أبياتها البالغ ٧٣٤ بيتًا ، وتليها ترجمة عربية ، ولغتها تتسم بالتكلُّف ، ومادتها دينية تهذيبية تتضمن شخصيات من الكتاب المقدس وبعض القديسين ، وطرفا من أمجاد الماضي القبطي .

٥- ويذكر أبو المكارم سعد الله في كتابه « **تاريخ الكنائس والأديرة** » عن أهل إسنا أنهم : « في أعراس المسلمين وأفراحهم يحضروا النصارى ويقروا قبطيا صعيدي ويمشوا قدام العريس في أسواقها وشوارعها . وصار هذا عندهم عُرف وعادة مستقرة إلى عصرنا هذا . » أي إلى القرن الثالث عشر وقت كتابة الكتاب .

٦- كما صدرت مؤلفات باللغة العربية تشرح قواعد اللغة القبطية وتُسمى « مقدمات » . ووُضعت أيضا معاجم أي قواميس لمفردات اللغة القبطية مع ترجمتها بالعربية ، وتسمى « سلالم » ومفردها « سُلَّم » :

(أ) ففي القرن الثالث عشر

+ كتب أبو إسحق بن العسال « **السلم المقفى والذهب المصفى** » و هو معجم قبطي اتبع فيه الترتيب الهجائي لأواخر الكلمات مع التشابه اللفظي للكلمات .

+ وكتب أخوه أبو الفرج بن العسال مقدمة (في قواعد اللغة القبطية) .

+ وكتب السمنودي وهو الأنبا يوأنس أسقف سمنود مقدمة باللهجة البحيرية وأخرى باللهجة الصعيدية ، وسلما باللهجة البحيرية يعرف باسم « **سلم السمنودي** » ، وسلّمًا آخر باللهجة الصعيدية يعرف باسم « **السلم الكنائسي** » ، وكلاهما عبارة عن مجموعة كلمات مأخوذة من كتب العهد الجديد والمزامير وقراءات النبوات والتسابيح الكنسية .

+ وكتب ابن كاتب قيصر مقدمة تدعى « **التبصرة** » .

+ ووضع الوجيه القليوبي مقدمة تسمى « **الكفاية** » .

+ ووضع ابن الدهيري ، وهو الأنبا خرستودولوس مطران دمياط مقدمة انتقد فيها من تقدمه من النحاة .

(ب) وفي القرن الرابع عشر

+ كتب شمس الرياسة القس أبو البركات بن كبر « **السلم الكبير** » أو « **السلم المقترح** » ، وهو معجم قبطي مؤلف بحسب ترتيب الموضوعات .

+ وكتب الأنبا أثناسيوس أسقف قوص « **قلادة التحرير في علم التفسير** » ، وهي مقدمة باللهجة البحيرية ، وأخرى باللهجة الصعيدية [وقد ثبت أنه كان معاصرا للأنبا غبريال البطريرك ٧٦ ، (١٣٧٠ - ١٣٧٨م) ، وكان العلماء إلى منتصف القرن العشرين يعتقدون أنه من رجال القرن الحادي عشر] .

ثامنًا - نصارى الصعيد يتكلمون القبطية بشهادة المقريزي في القرن الخامس عشر الميلادي

يكتب المقريزي ، وهو المؤرخ العربي الشهير ، المتوفى سنة ١٤٤١م في كتابه « **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** » ، المعروف بخطط المقريزي ، فيقول (في المجلد الثاني ، صفحة ٥٠٧) ضمن حديثه عن دير موشه ما يلي :

« والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدي وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحيرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون [هكذا] إلا بالقبطية الصعيدية . ولهم أيضا معرفة تامة باللغة الرومية .»

تاسعًا - القبطية لغة تخاطب في بعض مناطق الصعيد في القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن السابع عشر للميلاد

١- يقول عالم المصريات الشهير ماسبيرو في محاضرة ألقاها بنادي رمسيس في ١٩ نوفمبر ١٩٠٨م عن « **صلة المصريين الأقدمين بالمصريين**

الحاليين » :

« ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر في أوائل حكم الأتراك . ويؤخذ من بقايا كتابات ذلك العصر أن العنصر القبطي كان لم يزل قويا محترم الجانب في تلك الأنحاء . ولم يمر قرن ونصف قرن فقط حتى قُدم إلى سائح فرنساوي في أيام لويس الرابع عشر (١٦٤٣ – ١٧١٥م) آخر كاهن قبطي يجيد التَّكلُّم باللغة القبطية والمرأة العجوز التي تنازعه ذلك الامتياز المحزن. ومن ذلك الوقت أصبحت القبطية لغة الطقوس الدينية فقط (جرجس فيلوثاؤس عوض ، المجلة القبطية ، السنة الثانية ، صفحة ١٢) .

٢ – يذكر الرحالة الألماني الراهب الدومينيكاني ڤانسليب في كتابه المترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « **حالة مصر الحاضرة أو رواية جديدة لرحلة حديثه لتلك المملكة تمت عامي ١٦٧٢ – ١٦٧٣م** » ، والمطبوع في لندن سنة ١٦٧٨م ، أنه وجد بين الأقباط من يتكلم لغته الأصلية ، فعند زيارته لأسيوط قابل فيها المطران القبطي الأنبا يوأنس الذي عرفه بأحد أصدقائه المدعو المعلم أثناسيوس ، وهو الشخص الوحيد في مصر العليا الذي يتكلم لغة البلاد الأصلية أي اللغة القبطية .

عاشراً – بقايا تراث التحدث باللغة القبطية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ، وتراث الزينية في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد

١ – فَقَدَ كثير من الأقباط القدرة على قراءة نصوص الصلوات المكتوبة باللغة القبطية ، فبدأوا يكتبون النصوص القبطية بحروف عربية . وظهرت ابتداء من القرن الثامن عشر مخطوطات لأبصلموديات وخولاجيات وخدمة الشماس وأجبيات نصوصها القبطية مكتوبة بحروف

عربية ، وبعضها مكتوب في ثلاثة أعمدة للصفحة الواحدة كمخطوط خولاجي دمنهور ، حيث نجد فيه العمود الأيسر مخصصا للنص القبطي بحروفه القبطية ، والعمود الأوسط للنص القبطي مكتوبا كتابة صوتية باستخدام الحروف العربية ، والعمود الأيمن للترجمة العربية .

٢ – وكان رجال الإكليروس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حريصين على المحافظة على التراث الباقي من القبطية الذي يربطهم بأمجاد الماضي وتراث الآباء ، فكانوا لا يقدسون القداس ولا يتكلمون داخل الهيكل إلا باللغة القبطية . وبالرغم مما انتابهم من الجهل والفقر بسبب ظلم الحكام لم يهملوا لغة الآباء . وكانوا يعتقدون أن الصلاة داخل الهيكل بغير اللغة القبطية أمر لا تقرُّه القوانين الكنسية .

٣ – ولئن كان الاستخدام المتصل للغة القبطية في الحياة اليومية قد انتهى ، إلا أنه بقيت قدرة لدى بعض العائلات على التحدث باللغة القبطية لبعض الوقت ، ولو أن هذه المقدرة استمرت فى التناقص تدريجيا من جيل إلى جيل . ومع ذلك فقد بقيت بعض المفردات والتراكيب القبطية مستعملة في لغتنا العربية العامية ، وبعضها شائع على ألسنة الأقباط والمسلمين على السواء [اطلب مقال « المفردات القبطية في لهجة مصر العربية العامية ، المنشور بالإنجليزية في دائرة المعارف القبطية ، لنفس المؤلف ، تحت العنوان التالي :

Emile Maher Ishak, "*Egyptian Arabic Vocabulary, Coptic Influence on*", in the Coptic Encyclopedia, ed. by A. S. Atiya, vol. 8, pp. 112-118.

٤ – الروايات كثيرة عن بعض عائلات قبطية احتفظت بالقدرة على

التحدث بالقبطية في أمور الحياة اليومية خلال القرن التاسع عشر . ولكن يلزم أن نتذكر أنهم كانوا يتحدثون أساسًا باللغة العربية ، وأن تحدثهم باللغة القبطية كان يجري لبعض الوقت ، وليس بصفة مستديمة ، فلم يتصل هذا التقليد العائلى إلى الأحفاد الذين حكوا عنه كمجرد ذكريات قائلين إنهم سمعوا آباءهم أو أجدادهم يتحدثون بالقبطية . ومن هذه الروايات نذكر ما يلي :

(أ) سجل كويبل Quibell في سنة ١٩٠١م أن المرسل الأمريكي داڤيد ستراڤج David Strang في بني سويف أخبره أنه عندما وصل إلى مصر قبل ثلاثين عاما سمع من الرجال الأحياء آنذاك ذكرياتهم عمن عرفوهم يتحدثون بالقبطية في الصعيد . ويذكر بالتحديد رجلاً عجوزاً من قوص اسمه چام إستفانوس يتذكر أنه وهو صبي كان يسمع والديه وآخرين قليلين من كبار السن في قوص ونقاده يتحدثون معًا بالقبطية . ويعتقد چام أن منطقة قوص ونقاده كانت هي آخر المناطق التي عاشت فيها اللغة القبطية .

(Worrell, *Coptic Texts*, 1942, p. 306, quoting Äz (=ZAS) 39 (1901), p. 87).

(ب) يسجل وُرل ما سمعه عن القسوس في فرشوط أنهم إلى خمسين عامًا مضت (أي في القرن التاسع عشر) لم يكونوا يتكلمون داخل هيكل الكنيسة سوى باللغة القبطية . وأنهم بعد الصلاة كانوا يشربون القهوة مع العرفاء ويتحدثون بالقبطية ، وأن الأطفال كانوا يتأثرون كثيراً بهذه اللغة السرية واشتهوا أن يتعلموها . ويقول ورل أن التحدث بالقبطية كان عادة وتقليداً عائليًا متوارثًا في عائلات العرفاء والقسوس بما في ذلك النساء . وأن مواضيع الحديث بالقبطية كانت تتطرق إلى حالة

الجو ، وأسعار البهائم ، والأعراس ، والوفيات ، والزيارات ، والحكايات ، والأساطير (نفس المرجع ، صفحة ٣٠٣) .

(جـ) العلامة يسى عبد المسيح (المتوفى سنة ١٩٥٩م) ينقل عنه ورل أن جده أخبره أنه كان يسمع أباه والناس يتحدثون معًا بالقبطية في الكنيسة (نفس المرجع) .

(د) كانت أم خليل أبو بساده (المتوفاة نحو سنة ١٨٨٦م) تتكلم القبطية في الزينية . وتوجد شهادات أخرى كثيرة قدمها أهل الزينية بأن أجدادهم (في القرن التاسع عشر) كانوا يتحدثون القبطية رجالا ونساءً ، وأنهم كانوا يتعلّمون القبطية في المنزل ، لا من الكتب ، بخلاف الوضع بالنسبة لأهل الزينية في الوقت الحاضر (نفس المرجع) .

٥- تراث اللغة القبطية في الزينية

الزينية قرية من توابع الأقصر تحتفظ إلى الآن بتقليد النطق الأصيل الصحيح للغة القبطية . كما أنها من المعاقل الأخيرة التي تحتفظ ببقايا تراث عائلي للتحدث باللغة القبطية . وقد اهتم به معهد الأبحاث الأثرية بجامعة ميتشيجان في أمريكا ، فأوفد بروفسور ورل أستاذ اللغة القبطية في تلك الجامعة ليُجري أبحاثًا مع دكتور ڤيسيشل لتسجيل تراث اللغة القبطية في تلك القرية في موسم سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧م . ونُشرت عنه مقالات مبدئية في المجالات العلمية إلى أن نُشر البحث نفسه كفصل ملحق بكتاب ورل عن النصوص القبطية :

Worrell, W. H., and Vycichl, W., "*Popular Traditions of the Coptic Language*" in Worrell, W. H., *Coptic Texts*. Ann Arbor, 1942. pp. 295-342.

ويسجل في هذا البحث تاريخ التقليد الشفهي للغة القبطية في الزينية

حسبما استقاه من أهلها في ذلك الوقت ؛ وهو أن نجاراً من أسيوط يدعى إسحق قدم إلى الزينية منذ نحو ثلاثمئة عام بدعوة من أهلها المسلمين الذين لم يكن لديهم حرفيين . وكان إسحق يتكلم القبطية مع أسرته ، وإليه ينسب فضل إحضار ذلك التقليد إلى الزينية . كذلك أيضا قدم شخص آخر اسمه طنيوس من نقاده ، وهذا أيضا كان يتكلم القبطية ، ومات في الزينية نحو سنة ١٨٨٦م بالغًا من العمر مئة عام . وجاء أيضا شخص ثالث اسمه محارب كان يتحدث القبطية مع زوجته ، وقدم إلى الزينية وهو في الثمانين من عمره ، ومات فيها منذ زمن طويل . وهذان الأخيران لم ينقلا تراث القبطية إلى الزينية ، وإنما قاما فقط بالتعليم في الكُتّاب . أما الأولاد في الزينية فقد تلقنوا تراث اللغة القبطية عن والديهم ...

فمثلاً تعلم خليل أبو بساده اللغة القبطية من أبيه وأمه في الزينية . ويموت أبيه وهو بعد طفل تعلم الكتابة بالقبطية من طنيوس ومحارب ، واستمر يعيش في الزينية ، ويعلم فيها القبطية إلى وقت وفاته نحو سنة ١٩١٠م . ومن بين من علّمهم ابنه إندراوس الذي التقاه ڤيسيشل . واشترك خليل أبو بساده مع متياس في تعليم بسطوروس بن واقيم بن بلمون الذي كان قد تعلم القبطية أصلاً من أبيه واقيم الذي كان يتكلم القبطية بطلاقة . وأصبح بسطوروس معلّم القبطية النابغ في كُتّاب الزينية ... ويتتبع الباحثان أسماء أخرى كثيرة في الزينية تعلّمت القبطية في المنزل قبلما تعلّمتها في الكُتّاب .

وحيث أن ثروة مفردات اللغة القبطية في الزينية تعتمد أساسًا على الكتب المقدسة والكتب الطقسية المكتوبة باللهجة البحيرية ، والتي كانت تصل بانتظام إلى كنائس الصعيد من نساخة رهبان وادي النطرون منذ القرن الحادي عشر ، لذلك فإن التراث العائلي للتحدث بالقبطية الموجود

في الزينية هو بحيري في مجمله مع بعض تأثيرات صعيدية طفيفة (نفس المرجع ، الصفحات ٣٠١ - ٣٠٦) .

ولتراث الزينية أهمية أخرى هي احتفاظه بالقيم الصوتية الأصلية للحروف القبطية طبقًا للنطق القبطي السليم الذي كان منتشراً في كل أنحاء مصر من الإسكندرية إلى أسوان ، قبل التغييرات التي أدخلها المعلم عريان أفندي جرجس مفتاح على نطق اللغة القبطية بجعله كاللفظ اليوناني الحديث في سنة ١٨٥٨م ، فأفسد بذلك نطق اللغة القبطية الأصيل . وللأسف فقد تبنى إقلاديوس لبيب تلميذ المعلّم عريان نشر ذلك النطق الدخيل في الإكليريكية هو وتلاميذه ، فكاد النطق الأصيل أن يختنق لولا أننا تنبهنا إلى ذلك الخطأ وسارعنا إلى إحياء تراث النطق الأصيل الموجود في الزينية وأرمنت ولا نزال نعمل على نشره بعد إثبات دقته وأصالته ، في رسالة للدكتوراه في فلسفة نطق اللغة القبطية البحيرية تقدم بها كاتب هذا الكتاب د. إميل ماهر إلى جامعة أكسفورد سنة ١٩٧٥م . وأسس قداسة البابا شنوده الثالث معهد اللغة القبطية في ٩ ديسمبر ١٩٧٦م (٣٠ هاتور ١٦٩٣ش) لتحقيق هذا الهدف [لتفصيلات أكثر راجع : إميل ماهر : **اللفظ القبطي البحيري القديم ؛ تاريخه وإثبات أصالته وأفضليته** . القاهرة ، ١٩٧٨ ؛ إميل ماهر : **اللفظ القبطي القديم ؛ وجوب التمسك به لأصالته** .. القاهرة ، ١٩٨٤م] .